(٥)

الغزالي.. رجل الدعوة

obeikandl.com

obeikandl.com

الغزالي.. رجل الدعوة

عرفت في الشيخ الغزالي أنه رجل دعوة قبل كل شيء، الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها، الإسلام ماضيه، والإسلام حاضره، والإسلام مستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده، لا يستطيع الابتعاد عنها إلا كما يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء. يعيش به، وله، وفيه، له يسالم، وله يحارب، وفيه يحب، وفيه يبغض، وله يبغض، وبه يرضى ومن أجله يصل، ومن أجله يقطع، وله يحيا، وعليه يموت، أخلص دينه لله، فأخلصه الله لدينه.

ولهذا حين يتحدث عن الإسلام، فإنما يتحدث قلبه قبل لسانه، ويعبر قلمه عما جاش به صدره، وانفعلت به حناياه. فهو رجل ظاهره كباطنه، وعلانيته كسرِّه، أكره شيء إليه نفاق الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فهم أشبه بمقابر مزوقة، في جوفها جيف منتنة!

لا يحب الرياء الديني، ولا الرياء الاجتماعي، ولا الرياء السياسي، ويرفض كل المظاهر الكاذبة، التي تقوم عليها الحياة الدينية أو الاجتماعية، ويندد بأولئك الدجالين الذين يأكلون بالدين ولا يعملون به، ولا يعملون له، ويلعن أولئك الحكام الذين يشاركون في المناسبات الدينية، وأفئدتهم خراب من احترام شريعة

الله، وآخرين يحتفلون بالمولد النبوي أو الإسراء أو الهجرة، ولم تزل أفواههم رطبة من الخمر.

الغزالي رجل دعوة مخلص لدعوته، متجرد لها، ولهذا ينفَذ كلامه إلى القلوب، فيلهبها بمشاعر اليقين والحب، ومعاني الإيمان والإحسان.

وأشهد أني ما سمعت الغزالي إلا تأثرت به، وتجاوبت معه، وذلك لما لمست فيه، طوال معيشتي له، من صدق وتجرد، جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله عز وجل.

عاش الشيخ للدعوة عمره، وكانت هي أكبر همه، ومحور فكره وعمله، ولم يلهث وراء مال أو جاه، فجاءه المال والجاه بفضل من الله تعالى، وبركة الدعوة، وهو دائماً يذكر ذلك، ويذكّر به.

لم يركض وراء المناصب التي يتهافت عليها كثيرون ممن يلبسون لبوس أهل الدين، وأحق ما يوصفون به، ما جاء عن بعض السلف: ذباب طمع، وفَراش نار!

ولقد عرِض على الشيخ أكثر من مرة أن ينضم إلى الحزب الحاكم، وأن يرشَّح على قائمته، ونثرت أمامه الوعود، ولوّح له بالمناصب، التي ارتقى إليها مَن دونه علماً وعملاً ودعوة وجهاداً وشهرة.

وزاره أكثر من كبير من المسؤولين، يحاولون أن يلينوا عريكته، ويجروا رجله إلى القيد الذهبي البراق.

ولكن الله سدد الشيخ وثبّته أمام كيدهم، فلم تلن له قناة، ولم يسل له لعاب، وظل بعيداً عن مواكب الطبل والزمر، فما يطيق الشيخ أن يسكت عن حق، فكيف يراد له أن ينطق بالباطل؟!

إن لسان الشيخ لم يخلق ليهتف باسم مخلوق، بل ليهتف باسم الله وحده، ذاكراً له، وتالياً لكتابه، وداعياً إلى دينه. . . . ويد الشيخ لم تخلق لتصفق لزيد أو

عمرو من الناس، بل لتمسك بالقلم سلاحاً تشهره في وجوه الطواغيت، وتنير بكلماته السبيل أمام طلاب الهداية في تيه الضلالات، وملتمس النور في دنيا الظلمات.

وقد أهل الشيخ للدعوة ــ بعد دراسته الأزهرية المتعمقة ــ حفظه لكتاب الله من الصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، حتى إنه ذكر عن طفولته أنها كانت عادية، وليس فيها شيء مثير، وإن كان يميزها حب القراءة يقول: فقد كنت أقرأ في كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب عليّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأقرأ وأنا أتناول الطعام.

وللقراءة أهمية خاصة ــ يقول الشيخ ــ لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين، وإذا صحت تزيل الثقة منم.

إن القراءة ــ أي الثقافة ــ هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدوداً صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيراً ما يكون قصور الفقهاء والدعاة راجعاً إلى فقرهم الثقافي. والفقر الثقافي للعالم الديني أشد في خطورته من فقر الدم عند المريض وضعاف الأجسام. ولا بد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء: يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ في الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة[1].

شروط الداعية في نظر الغزالي

سئل الشيخ الغزالي عن (شروط الداعية) المنشود كما يراها، فأجاب بقوله:

---

(١) من أجوبة الشيخ في كتاب: (علماء ومفكرون عرفتهم) للأستاذ: محمد المجذوب.

«الدعوة إلى الله لا يصلح لها بداهة أي شخص.. إن الداعية المسلم في عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية، بمعنى أن يكون عارفاً للكتاب والسنة والفقه الإسلامي والحضارة الإسلامية. وفي الوقت نفسه يجب أن يكون ملماً بالتاريخ الإنساني وعلوم الكون والحياة والثقافات الإنسانية المعاصرة التي تتصل بشتى المذاهب والفلسفات.

ويجب على من يدعو إلى الله أن يتجرد لرسالته التي يؤديها فتكون شغله الشاغل، وعليه أن يعامل الناس بقلب مفتوح فلا يكون أنانياً ولا حاقداً، ولا تحركه النزوات العابرة، ولا ينحصر داخل تفكيره الخاص، فهو يخاطب الآخرين وينبغي أن يلتمس الأعذار للمخطئين، وألا يتربص بهم بل يأخذ بأيديهم إذا تعثروا.

ويحتاج الداعية المسلم في هذا العصر إلى بصر بأساليب أعداء الإسلام على اختلاف منازعهم، سواء كانوا ملحدين ينكرون الألوهية أو كتابيين ينكرون الإسلام.

وقد لا حظت أن هناك أصنافاً من الناس في ميدان الدعوة تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة، منهم الذي يشتغل بالتحريم المستمر فلا تسمع منه إلا أن الدين يرفض كذا وكذا، دون أن يكلف نفسه أي عناء لتقديم البديل الذي يحتاج إليه الناس.. وكأن مهمته اعتراض السائرين في الطريق ليقفوا مكانهم، دون أن يوجههم إلى طريق آخر أرشد وأصوب.

وهناك دعاة يعيشون في الماضي البعيد، وكأن الإسلام دين تاريخي، وليس حاضراً ومستقبلاً، والغريب أنك قد تراه يتحامل على المعتزلة والجهمية مثلاً، وهو محق في ذلك، ولكنه ينسى أن الخصومات التي تواجه الإسلام قد تغيرت وحملت حقائق وعناوين أخرى.

وهناك دعاة آخرون لا يفرقون بين الشكل والموضوع أو بين الأصل والفرع،

أو بين الجزء والكل، فهم يستميتون في الإنكار بأي شكل من الأشكال ويبدون قواهم كلها في محاربة هذا الشكل، أما الموضوع فهم لا يدرون ماذا يصنعون إزاءه، ولهؤلاء عقلية لا تتماسك فيها صور الأشياء بنسب مضبوطة، ولذلك قد يهجمون شرقاً على عدو موهوم ويتركون غرباً عدواً ظاهراً، بل ربما حاربوا في غير عدو..

وهؤلاء وأولئك عبء على الدعوة الإسلامية يجب إصلاحهم، كما يجب إصلاح الذين يدخلون ميدان الدعوة بنية العمل لأنفسهم لا لمبادئهم، فإن العمل الذي يستهدف القيم الإسلامية غير العمل الذي يدور حول المآرب الشخصية.

تبين لي بعد أربعين سنة من العمل في الدعوة الإسلامية أن أخطر ما يواجه العمل الإسلامي هو التدين الفاسد، أي استناد النفس إلى قوة غيبية وهي تعمل للخرافات والأوهام، أو هي تعمل للأغراض والمآرب..

الدين مثلاً يقظة عقلية، وهؤلاء يعانون تنويماً عقلياً متصلاً، والدين قلب سليم، وهؤلاء استولت على قلوبهم علل رديئة.

والأمر في كشف التدين الفاسد يحتاج إلى تفاصيل للتعامل مع الآفات النفسية والعقلية التي تسبب هذا البلاء، وقد خصص أبو حامد الغزالي جزءاً ضخماً من كتابه: (الإحياء) في علاج هذه الآفات والتحذير منها، كما وضع ابن الجوزي كتاب: (تلبيس إبليس) للكشف عن صور التدين الفاسد، وإبعاد العامة والخاصة عنه.

وقد ألفت بعض كتبي وأنا مستغرق في محاربة هذا الجانب من التدين المعلول، سواء كان رسمياً أو شعبياً، مثل كتاب: (تأملات في الدين والحياة) وكتاب: (ليس من الإسلام) وكتاب: ركائز الإيمان بين العقل والقلب) وأخيراً كتابي: (الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر).

والحقيقة أن التدين الفاسد سر انحراف كثير من العقلاء؛ لأنهم ينظرون إلى

الدين من خلال مسالك بعض رجاله وآثارهم في الحياة العامة، والواقع أن بعض المتدينين كانوا في القديم والحديث بلاء على الدين»[1].

خطب الغزالي من أدوات الدعوة

الغزالي داعية موهوب. وقد أتاه الله أدوات عدة للدعوة، في مقدمتها: الخطابة[2].

ولقد استمعت إلى الشيخ الغزالي خطيباً، منذ معتقل الطور ــ في فبراير ١٩٤٩م ــ إلى اليوم، فما تغيرت طريقته.

إن خطبه دائماً تخدم موضوعاً علمياً محدداً، يوضح معالمه وعناصره، ويستدل له من القرآن الكريم الذي يستحضر آياته في كل موضوع كأنها مصنفة بين يديه، ومن السنة المطهرة، التي قرأ الكثير منها فأحسن قراءته، والفهم له، والاحتجاج به. وربما استدل بالضعيف منها ــ في بعض الأحيان ــ أخذا برأي جمهور العلماء في الاستدلال بالضعيف في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

وهي دائماً مرتبطة بالواقع، تقوم عوجه، وتعالج أمراضه، وتسدد مسيرته، في ضوء تعاليم الإسلام.

والشيخ داعية وناقد اجتماعي بصير، ينفذ ببصيرته إلى ما وراء الظواهر والأعراض؛ ليكشف عن حقائق العلل والأمراض، ولا يغيره الزيف ولا التهويل، الذي يغطي العيوب بتمويهات لا تخفى على اللبيب، كما لا تخفى حقيقة الداء على الطبيب.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قد وفق الله بعض الأخوة لتفريغ مجموعة طيبة من خطبه المسجلة، وقام على ذلك الأخ الشيخ قطب عبد الحميد قطب، وراجعها الدكتور محمد عاشور، وتولت نشرها (دار الاعتصام)، وقدم لها الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين. فجزى الله الجميع خيراً: من سجّل، ومن فرغ، ومن نشر، ومن قدم. فهي ذخيرة لكل مسلم، ولا سيما الدعاة.

وهو في خطبه معلِّم موجه، أكثر منه خطيباً محرضاً.

وهو يخطب كما يكتب، عذوبة ورشاقة وأناقة، فخطبه كلها، قطع أدبية، لا تجد فيها حوشيّ الكلام، ولا سوقيه، كما لا نجد فيها التقعر والإغراب، الذي يحوجك إلى المعاجم لتبحث عن معاني ما سمعت.

وقارىء هذه الخطب يجد فيها أثر الثقافة المتنوعة، والتمكن الأزهري، وأصالة الدراسة اللغوية والأدبية.

وهو متمكن من اللغة، واع لقواعد النحو والصرف، لا يلحن ولا يخطىء، كأنما يقرأ صحيفة مضبوطة بالشكل. وهو حريص على أن يكون أداؤه صحيحاً مائة في المائة، ولا يسامح نفسه في زلة يسبق بها لسانه، وقد رأيته مرة تحمس في خطبة فسبقت إلى لسانه هفوة نحوية يسيرة، فأسف لذلك أسفاً شديداً، وقال: هذا نتيجة الانفعال، وسأحاول ألا أكرر ذلك ما استطعت!

ويلحظ المهتم بالعربية أن الشيخ يراعي الدقائق النحوية التي يغفل عنها الكثيرون، مثل اجتماع الشرط والقسم، وتقديم القسم أو ما يدل عليه، فلا يقع فيما يقع فيه من لا يعرف القواعد، ويقرن الجواب بالفاء. كقول بعضهم: لئن فعلتم كذا فسيعاقبكم الله. والصواب: لئن فعلتم كذا ليعاقبنكم الله. وفي هذا يقول ابن مالك:

واحـذف لـدى اجتمـاع شـرط وقسـم جـواب مـا أخـرت، فهـو ملتـزم

ولقد حدث الشيخ عن نفسه: أنه بعد تخرجه عين إماماً وخطيباً بمسجد عزبان بالعتبة، وأنه بعد عدة أسابيع نفدت بضاعته ولم يجد ما يقوله للناس، فبدأ تكوين نفسه من جديد، يقرأ في علوم الدين، ومعارف الدنيا، في الكتب القديمة والكتب الحديثة، في مصادر الشرق وما ترجم عن الغرب، حتى أمكنه أن يرضى عن نفسه، وأن يجد عندها ما يستطيع أن يمنحه لغيره. فالشهادة ليست هي نهاية العلم، بل مفتاحه، والداعية يجب أن يظل قارئاً ما عاش، فالقراءة هي حياته،

والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾، والسلف يقولون: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل. ومن مأثوراتهم: اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

وقد شدت خطب الغزالي جماهير المثقفين والشباب إليه، فكانوا يفدون إليه من أنحاء شتى مستمعين ومستفيدين، وخصوصاً في المساجد التي كان يخطب فيها بانتظام، مثل مسجد الزمالك، وجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، الذي أحيته خطب الشيخ بعد أن كان شبه مهجور، وهو أول مسجد أسس للإسلام في إفريقيا.

أنشأت هذه الخطب مدرسة إسلامية في فهم الإسلام وإفهامه، وهي مدرسة تقدم الدين من ينابيعه الصافية، موثقاً بالأدلة، خالصاً من الزوائد والشوائب، بعيداً عن التحريف والتزييف، لا تسكت عن حق، ولا تتكلم بباطل، ولا تبيع ديناً بدنيا، ولكنها لا تعرض لأشخاص بأسمائهم على المنبر، ولا تعتمد الإثارة والتهييج في الموضوعات الحساسة، بل تعالج أدق القضايا بمبضع الجراح، متبعاً ما أمر الدين به من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومستأنساً بما قاله السلف: من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

وبالرغم من أن الغزالي الخطيب كان هو المسؤول عن الدعوة وشؤون المساجد في وزارة الأوقاف المصرية، نراه يقول الحق، وإن كان مراً، لا يخشى في الله لومة لائم، وهذا ما أزعج السلطات، التي تتوجس من هذا النوع من الخطب التي تنير العقول بالحقائق، قبل أن تثير المشاعر بالمبالغات.

وانتهى الأمر بمنع الشيخ من الخطابة بمسجد عمرو.

الدعوة بالقلم

على أن الشيخ الغزالي ليس داعية بلسانه فحسب، بل هو داعية بقلمه كذلك،

حتى إن أكثر الذين عرفوه ــ وأنا منهم ــ عرفوه أولاً من نتاج قلمه، الذي بلغ إنتاجه اليوم نحو ستين كتاباً.

وهو صاحب قلم متميز ببلاغته وروعة أسلوبه وقوة منطقه، جنده للدعوة من أول يوم؛ لتوضيح معالم الإسلام، وبيان حقائقه، والرد على أباطيل خصومه في الداخل، وأعدائه في الخارج، وإضاءة طريق البعث لأمته، حتى تعرف غايتها، وتستبين طريقها، بين أضاليل المضللين، وشبهات المبطلين.

ومن قرأ للغزالي أدرك أنه أمام كاتب مقالة من الطراز الأول وأن القلم في يده أشبه بالسيف في يد ابن الوليد أو صلاح الدين، فهو سيف الله المسلول على أعدائه، بل يدافع، به يهاجم، وهو قوي في دفاعه، قوي في هجومه، دون أن يعتدي على أحد، فإن الله لا يحب المعتدين.

ربما كان عيب الشيخ الغزالي لدى بعض المتعالين والمتعالمين: أنه في غاية الوضوح، وأنه مفهوم لمن يقرؤه، لا يجد قارئه معاناة في فهمه والنفوذ إلى فكره.

كما يجد ذلك فيما يقرأ لبعض المتفلسفين والمتكلفين، الذين يعمدون إلى الإغراب والرمز والغمز، وتكثيف المصطلحات، إلى حد الألغاز والإخفاء والتجهيل، ربما ليخفوا أفكارهم المسمومة وراء هذه الإكنة من التعابير الغامضة، التي تحتاج أبداً إلى حواش لشرحها، ويعدون ذلك مزية لهم يباهون بها، في مقابل الوضوح البين، والبيان الواضح، عند الغزالي وأمثاله، مما يعتبرونه عيباً، ينزل بمرتبة أصحابه الفكرية والأدبية.

فإن كان هذا عيباً، فالأمر كما قال الشاعر:

وإذا تكون المكرمات معايباً فالعجز أن تحيا ولست معيباً!

إن الغزالي يخاطب بكتاباته الفطرة، ويجتهد أن يقنع العقل، ويحرك القلب؛ لهذا لا يتقعر، ولا يتكلف ولا يتعسف، وقلما يستخدم المصطلحات والكلمات

التي بين قوسين، بل يحاول أن ينفذ إلى قارئه بنصاعة الأديب المبدع، ووضوح الداعية المشْبع، وله في بيان أن الله ورسوله أسوة حسنة.

منبر الصحافة

ومن منابع الغزالي وميادينه للدعوة والبلاغ: منبر الصحافة.

فقد كان الشيخ منذ شبابه المبكر أحد كتاب مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، ثم من كتاب مجلة (المباحث) التي استأجرها الإخوان بعد خروجهم من المعتقل سنة ١٩٤٩م، ثم مجلة (الدعوة) التي أسسها المدعو له بالرحمة الأستاذ صالح عشماوي، وكذلك المجلات الإسلامية المعروفة مثل: مجلة (لواء الإسلام) في مصر، ومجلة (الأمة) القطرية التي استمرت سنوات ثم توقفت فجأة، وهي توشك على الظهور مرة أخرى إن شاء الله.

وهو في السنوات الأخيرة يكتب بصفة منتظمة في عمود أسبوعي بجريدة (الشعب) المصرية تحت عنوان: (هذا ديننا)، وصحيفة (المسلمون) السعودية، تحت عنوان: (الحق المر).

ولا يكاد يمر حادث ذو بال على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الإسلامي أو الدولي إلا وكان للشيخ وقفة معه، وتعليق عليه، من وجهة النظر الإسلامية، بقلم الأديب المبدع، وروح الداعية المحلق، وعقل المفكر الملتزم، ونظرة الناقد المصلح.

ويكتب الشيخ أحياناً مقالات ممتعة لبعض المجلات لإيضاح بعض المفاهيم الإسلامية، أو بعض الشبهات، أو نقض بعض الافتراءات على الإسلام ودعوته.

وفي بعض السنوات أجرت جريدة الشرق الأوسط استفتاء لدى القراء عن (الكاتب الأول) في نظرهم لهذا العام، فكان الشيخ الغزالي هو الفائز بأكثر الأصوات، وحاز الجائزة المرصودة لذلك.

ويتصل الشيخ بالصحافة عن طريق آخر، هو طريق الحوارات التي يجريها معه كثير من الصحفيين، الذين يحرصون على معرفة رأي الشيخ في كثير من القضايا الي تهم الناس، فيجيبهم إجابات تقصر أحياناً، وتطول أحياناً، حسبما يسمح به المقام.

ومن أشهر الحوارات هنا: ما أجرته مجلة (الأمة) معه من حديث حول القضايا الإسلامية، ونشره مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة ضمن كتاب (الأمة) الذي صدر بعنوان: (الدعوة الإسلامية ملامح وآفاق).

وأكثر هذه الإجابات مهم، وينبغي أن يجمع وينشر حتى ينتفع به الناس.

منبر الإذاعة والتلفزة

ومن منابر الدعوة لدى شيخنا الغزالي: الإذاعة والتلفاز، وقد أذيعت له أحاديث كثيرة في أقطار شتى، في الإذاعة المسموعة، والإذاعة المرئية، عملت في تنوير العقول بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وفي ترقيق القلوب وتزكية الأنفس بالمعاني الربانية، والمثل الأخلاقية الرفيعة، ما يعمله الغيث في الأرض العطشى، يحييها بعد موتها.

وقد ظلت أحاديثه تذاع من إذاعة الصباح في السعودية لسنوات، وكذلك كانت له أحاديث مذاعة ومتلفزة في قطر والكويت والإمارات من بلاد الخليج.

وفي الجزائر كان له حديث أسبوعي مساء كل اثنين يبثه التلفاز، كان الناس في أنحاء الجزائر يترقبونه، وينصتون إليه، ويجدون فيه معاني جديدة في فهم الإسلام والحياة، تكمل ما بدأته المدرسة الإصلاحية التجديدية في الجزائر: مدرسة عبد الحميد ابن باديس، والبشير الإبراهيمي، التي جعلت شعارها: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وجعلت نشيد أبنائها:

شعـــب الجـــزائـــر مسلـــم وإلـــى العـــروبـــة ينتســـب
مـــن قـــال: حـــاد عـــن أصلـــه أو قـــال: مـــات، فقـــد كـــذب

وأحسب أن أحاديث الشيخ هذه كان لها أثرها في امتداد الصحوة ونموها، ورسوخ جذورها، وعلو فروعها، بجوار الكتب والمحاضرات والأشرطة وملتقيات الفكر الإسلامي، وعمل الدعاة والمربين أفراداً وجماعات.

obeikandl.com

مصارعة القوى المعادية للإسلام

وهناك جانب أساسي من جوانب الدعوة عند الغزالي، وهو: مصارعة القوى المعادية للإسلام، والتصدي لتياراتها، والعمل على كشف عملائها، وهدم أوكارها، وهتك أستارها، والوقوف في وجه أخطارها وآثارها، والغزالي هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطاطىء ولا يلين، ولا يقبل اللقاء في منتصف الطريق، أو الرضا بأنصاف الحلول، بل صبر ومصابرة ومرابطة حتى النصر أو الشهادة.

في وجه الاستعمار

لذا وقف في وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع) فليس الاستعمار مجرد طامع في أرض المسلمين ونهب ثرواتهم وخيراتهم، ولكنه ــ إلى جوار ذلك ــ حاقد صليبي، يحمل ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة، بل منذ احتل الأرض التي كانت مسيحية، بالشام ومصر وشمال إفريقيا والأناضول، وحولها إلى قلاع إسلامية. وقد ظهر هذا في موقف الغرب من قضايا الإسلام، وآخرها: قضية البوسنة والهرسك.

في وجه الصهيونية:

وقف في وجه الصهيونية العالمية، التي احتلت أرض النبوات، وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية، وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق، صنعت ذلك كله باسم التوراة، وتحت راية العقيدة اليهودية، التي جمعت اليهود المتفرقين

في الأوطان، ويراد للعرب وللفلسطينيين أن يقاتلوهم بغير دين، فيدخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ويدخلها العرب وليس معهم القرآن، وكان للشيخ في ذلك كتابات كثيرة لا تحصى، من أبرزها ما أصدره بعد النكبة أو النكسة، وهو كتاب: (حصاد الغرور).

في وجه التنصير

ووقف في وجه (التنصير) الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم فإن لم يقدر على إدخالهم في النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم، وتشكيكهم في دينهم، وللشيخ في ذلك كتابات شتى، بأساليب متنوعة، لعل آخرها كتابه: (صيحة تحذير من دعاة التنصير)، وقد كتبه بعد أن قرأ ما صدر عن مؤتمر (كلورادو) سنة ١٩٧٨م من تقرير ضخم ضم أربعين (٤٠) دراسة عن الإسلام والنصرانية، وهو المؤتمر الذي اجتمع بهدف تنصير المسلمين في العالم، ورصد لذلك ألف مليون دولار، وأنشأ لهذه الغاية (معهد زويمر) لتخريج متخصصين في تنصير أمة الإسلام.

في وجه الشيوعية

ووقف في وجه الشيوعية ومحاولاتها لغزو ديار الإسلام، وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدي من تصفيات جسدية، وحملات قمعية، وحمامات دموية، وللشيخ في ذلك كتابات كثيرة أبرزها: كتاب: (الإسلام في وجه الزحف الأحمر).

في وجه الحضارة المادية

ووقف الشيخ في وجه مادية الحضارة الغربية، وإباحيتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولات سيطرتها على حضارات العالم الأخرى، وإن لم ينكر ما فيها من عناصر إيجابية مثل العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة واحترام حقوق

الإنسان، وخصوصاً في داخل أوطانها، وله في ذلك كتابات قديمة وحديثة من أبرزها كتابات: (ظلام من الغرب).

في وجه العلمانية

ولعل أبرز المعارك التي خاضها الشيخ، وأطولها نفساً، وأشرسها هجوماً هي معركته مع (العلمانية) اللادينية، التي تعارض حاكمية الله لخلقه، وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل، وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التطور.

وقد بدأ هذا في كتابات الشيخ منذ وقت مبكر، حينما رد على صديقه الشيخ خالد ــ في فصل (قومية الحكم) من كتابه: (من هنا نبدأ).

بيد أن الشيخ وقف بقوة وحرارة في وجه العلمانيين الأصلاء في العلمانية، المبغضين علانية لشريعة الإسلام، المجاهرين بتحقير حكم الله ورسوله، الداعين إلى تغريب المجتمعات الإسلامية.

كانت معارك الشيخ مع هؤلاء تتسم بشيء من الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام، وتنفيرهم منه، ومعاداتهم للدعاة إليه، وكلما أوغل هؤلاء في عداوة الدين والشريعة كان قلم الشيخ كأنما هو شعلة من نار، نار تكوي وتحرق، ولا يخبو لها لهيب، كما نرى ذلك واضحاً في تعقب الشيخ لسقطات محمد سعيد العشماوي، ونصر أبو زيد، وفرج فودة، الذين أظهرت كتاباتهم مبلغ كراهيتهم لدعوة الإسلام، وتحكيم شريعته.

والشيخ يقول عن هذا النوع من العلمانيين: لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهؤلاء: المرتدون، فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد في قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه، ولا احترام لرسوله، ولا انقياد لشريعته، ويعجب الشيخ من موقف هؤلاء المرتدين في

حقيقة أمرهم، لماذا يحرصون على أن يحتفظوا باسم الاسلام، وأن يظلوا محسوبين على المسلمين، والإسلام منهم براء، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول المثقّب العبدي:

فإما أن تكون أخي بصدق ... فأعرف منك غثّي من سميني!
وإلا فاطرحني واتخذني ... عدوّاً أتقيك وتتقيني!

كان هؤلاء العلمانيون يظهرون في أثواب متباينة الأشكال. فقد يلبسون لبوس اليسار الثوري، وقد يلبسون لبوس اليمين الليبرالي، وقد يتحلون بعباءة القومية العربية، وقد يبدون في أثواب أخر، ولكنهم جميعاً شركاء في الجرأة على الله تباركت أسماؤه، وفي التعالم عليه جل علاه، والاستدراك على شرعه! فهم يزعمون أنهم أعلم من الله بخلقه، وأبر منه بعباده. وأنه تعالى حين شرع لهم ما شرع لم يكن يدري ما يحدث لهم من تطورات، وما يجري عليهم من أحداث، فهم لذلك يرفضون حكمه وحكم رسوله، ولا يرتضون مرجعية الإسلام فيما شجر بينهم.

وأكثر ما يغيظ الشيخ من هؤلاء العلمانيين الذين لا دين لهم هو: دجلهم وكذبهم على الله عز وجل! وذلك حين أقحموا أنفسه على دين الله، وليسوا من الله في كثير ولا قليل. وهم الذين يعتبرهم الشيخ (نباتات سامة في حقول الإصلاح)!

إنهم ورثة مسيلمة الكذاب الذي زعم أنه نبي يوحى إليه، ولم يوح إليه بشيء، وظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل المكشوف، فلم يدرك إلا القاع، وبقي اسمه إلى الأبد رمزاً للكذب.

وتتابع الكذابون في عصور مضت، فإذا أناس لا أثر لهم في ميادين الفلسفة، ولا أثر لهم في مجالات العلم، ولا ثقة بعقولهم في شيء طائل يقتحمون ميدان الدين، ثم يزعم هذا أنه نبي بعد محمد! ويزعم أن الله قد حلّ فيه، أنه مجلى لبهائه!!

وظاهر أن الاستعمار العالمي أراد الكيد للإسلام، والنيل من تعاليمه، فاستغل هذه «المانيخوليا» عند أصحابه، وروج لها واعتبر أصحابها مؤسسي أديان ومحدثين عن الله، وساندهم بدهاء وإلحاح، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد.

وعندما شرع المسلمون يفيقون من غفوتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويدمغون الكهان الجدد لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة في العصور السابقة، بفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام، بغية الإجهاز عليه من داخله، ولا شيء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيلمة وغلام أحمد وبهاء الله، مزيج من المانيخوليا، والجراءة والكهانة والادعاء.

هذا دجال ظهر في السودان يأخذ القرآن المكي ويرفض القرآن المدني[1]، ويوفر له الأمن سنين عدد!! وهذا دجال ظهر في مصر يقبل الكتاب ولا يقبل السنة[2].

وبديه أن كلا الشخصين لا يعتمد في مزاعمه على إسناد علمي، لا ينجع في مقارعة حجة بحجة. ماذا تقول لمسيلمة أو لسجاح أو لطواغيت القاديانية والبهائية، أو لطلائع الغزو الثقافي الذين يقسمون الوحي قسمين، فيمسكون قسماً، ويطرحون قسماً؟

هناك منطق عقلي أو تجريبي يحكم المقولات الفلسفية والقضايا المادية، أما هؤلاء فمنزع آخر تسيِّره أمراض نفسية، واضطرابات ذهنية، ونوع من الجنون المقدس أو عبادة الذات، وعلى الدهماء أن تسمع وتطيع..

---

(١) يقصد: محمود محمد طَه، الذي قضت المحكمة العليا في السودان بردته وبالدعوة إليها.

(٢) يريد حسين أحمد أمين، الذي كتب في مجلة (المصور) مقالات هاجم فيها الشريعة والسنة وفقهاء الأمة، والسلف الصالح وعمر بن عبد العزيز، ودافع عن طغيان الحجاج. انظر ردّنا عليه في كتابنا: فتاوى معاصرة ج ٢. فتوى: عمر بن عبد العزيز وهل كان جاهلاً بالسياسة؟ وانظر كذلك في الرّد عليه كتاب: الكاذب الحزين، نشر دار الصحوة وتأليف منذر الأسعد وتقديم الدكتور عبد الحليم عويس.

وتعاليم الإسلام في هذه الأيام تهبُّ عليها رياح صفراء من مصادر جديرة بالتفرُّس والحذر..

وغايتها لا تخفى علينا، إنها الإطاحة برسالة محمد كلها تحت عناوين مفتعلة، الاعتماد على القرآن وإطراح السنة! الاعتماد على القرآن المكي وترك القرآن المدني! تعطيل نصوص قائمة قد تكون عبادية كشريعة الصيام فيقال: الصيام يضرّ الإنتاج فلنلغ رمضان! وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال: إقامة هذه العقوبات تكثر العاهات وتشيع البطالة فنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها وأرعى للصحة العامة!!

فضح عملاء الغرب

ومما أخذه الشيخ على نفسه: أن يفضح عملاء الغرب الصليبي والشرق الشيوعي في ديارنا، ويهتك أستارهم التي يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى، من الحرية والتقدمية والتطور والتحرر والتنوير، وما شابهها.

لابد من تعرية هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا ترويج سلع الغرب الفكرية في أرضنا، وبين أهلنا، وإن كان فيها السم القاتل لأمتنا، فهذا السم يوضع في الدسم أو في الحلوى، حتى يقبل ويشتهي.

من أجل ذلك هاجم سلامة موسى، ولويس عوض، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وجورج حبش، وغيرهم من النصارى كما هاجم لطفي السيد، وساطع الحصري، وطٰه حسين، ونزار قباني، وعبد الرحمٰن الشرقاوي، وصلاح جاهين، وحسين أمين، وغيرهم من المسلمين، سواء منهم من تسربل برداء القومية أو الاشتراكية أو التحررية، أو أي رداء كان.

ونأخذ هنا مثالاً لموقفه من طٰه حسين ومحاولات أنصاره العمل على تخليد ذكراه، باعتباره الرائد الأول في الأدب، والقائد الأول للفكر!

يقول الشيخ في كتابه (علل وأدوية):

«قرأت للدكتور طٰه حسين، واستمعت له، ودار بيني وبينه حوار قصير مرة أو مرتين فصد عني وصددت عنه!

أسلوب الرجل منساب رائق! وأداؤه جيد معجب، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم ويستحيل أن يتقدم عليهم.. بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقاد أعمق فكراً، وأغزر مادة، وأقوم قيلا، وأكاد أقول: إن الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد..

وأسلوب زكي مبارك أرشق عبارة وأنصع بياناً من أسلوب الدكتور طٰه حسين، ولولا أن الرجل قتله الإدمان لكان له شأن أفضل.

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول: إنه واحد من الأدباء المشهورين في القرن الماضي، له وعليه.. وحسبه هذا.

بيد أنني لاحظت أن هناك إصراراً على جعل الرجل عميد الأدب العربي، وإمام الفكر الجديد، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة.

ولم أبذل جهداً مذكوراً لأدرك السبب، إن السبب لا يعود إلى الوزن الفني أو التقدير الشخصي، السبب يعود إلى دعم المبادىء التي حملها الرجل، وكلف بخدمتها طول عمره، إنه مات بيد أن ما قاله يجب أن يبقى، وأن يدرس، وأن يكون معيار التقديم.

تدبر هذه العبارة للدكتور «العميد»:

«إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي، لا كدين إلٰهي نزل بين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية! أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين».

ويمكن الرجوع لمثل كتابه: (مستقبل الثقافة في مصر) لتجد أشباهاً لهذه العبارات السامة.

ويشاء القدر أن تقع عيني على هذه العبارة: وقد قررت (إسرائيل) وقف الطيران في (شركة العال) يوم السبت احتراماً لتعاليم اليهودية!.

إن الإسلام وحده هو الذي يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات.

وظاهر أن الدكتور طٰه حسين كان ترجماناً أميناً لأهداف لم تعد خافية على أحد عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساساً تنطلق الأمة منه، وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربي في حياته وبعد مماته، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته، ليكون علماً في رأسه نار، كما يقول العرب قديماً.

أما العقاد وإسلامياته الكثيرة فيجب دفنه ودفنها معه، ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية وسائر النظم المستبدة، وساند «الديمقراطية» مساندة مخلصة جبارة، فإن العالم «الحر» ينبغي أن يهيل على ذاكره التراب، ليكون عبرة لكل من يتحدث في الإسلام، ولو بالقلم! فكيف إذا كان حديثاً بالفكر والشعور، والدعوة والسلوك، والمخاصمة والكفاح؟ هذا هو الخصم الجدير بالفناء والازدراء.

والقوى التي تعمل دائبة على تخليد الدكتور طٰه حسين، وتجديد فكره، وإعلاء شأنه معروفة لدينا، ونريد أن نكشف عنها، إذ لا معنى لبقائها في جحورها تلدغ ثم تستخفى، وتنال منا باسم حرية العلم، وهي لا تعرف من الحرية إلا لوناً وحيداً: كيف تضرب الإسلام وتطفىء جذوته وتميت صحوته؟

ذلك، إلى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألف الدكتور طٰه ضد ديننا وتراثنا، لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح

حاضرنا ومستقبلنا، وهي تربي النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتعتبر المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبداً دينياً، والتوراة ديناً ودولة»[1].

علماء الأزهر وحملة نابليون

كما فضح الغزالي العملاء، دافع بقوة عن الشرفاء، ومنهم علماء الأزهر، الذين اتهمهم بعض الشيوعيين أنهم استسلموا لنابليون!

يقول الشيخ:

«لقد تابعت بعض العروض الروائية والسير التاريخية لرجالنا وأحوالنا الأولى، فوجدت العجب من تزوير التاريخ والكذب على الأحياء والأموات.

زعم بعضهم أن علماء الأزهر لاذوا بالتقية عند مجيء نابليون بونابرت إلى مصر ولم يؤدوا واجبهم الوطني، وضربت كفاً على كف لهذه الصفاقة الغريبة...!

إن جثث العلماء المسلمين بعثرت حول القلعة وهم يقاومون الفرنسيين، وضرب الأزهر بالمدافع، ودخله الجيش الفرنسي بخيله، وقتل أحدُ الأزهريين القائدَ «كليبر»، وانتقم الفرنسيون منه فقتلوه شر قتلة. فكيف يطوى ذلك كله، ويذكر أن النسوة المعلمات هن اللائي قاومن الفرنسيين؟

قبحك الله من مؤلف كذوب... ولكن التهجم على الإسلام هدف يشترك فيه الرعاع وبعض الرؤساء عمداً، لينالوا من الإسلام نفسه، ولتعيش الأمة بلا عقيدة، ولتجد الصهيونية الطريق أمامها مفتوحاً إلى ما تريد.

وإلى القارىء هذا الشاهد الآخر من شواهد تزوير التاريخ والحملة على الإسلام وعلمائه:

كتب السيد صلاح جاهين شيئاً من الشعر[2] العامي عن مصر وتاريخها

---

(١) علل وأدوية: ص ٧٩ ــ ٨١.

(٢) نأسف لإطلاق كلمة شعر على هذا الهذر.

الطويل جاءت فيه هذه الكلمات:

زحف الفرنسيس وزحفت قبلهم جواسيس
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس
وايش عمل القاع قصير الباع.. في القمة
وايش تعمل العمة في البرنيطة يا أئمة؟
العمة ما اتكلمت؟(!!) وتن صوتها حبيس!
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس!
وده كفر طبعاً. ولا يدخل لنا في ذمة
اطمن الغرب أن في بلدنا ناس رمة
وانهش يا ديب فينا واقضي بمنتهى الهمة
علـــى اســـم مصـــر

وأنا أعتذر أولاً عن تدوين هذه التعابير السوقية في صحيفة محترمة، لا يجوز أن تنشر أمام العامة، ولكني مضطر لتنفيذ ما حوت من إفك خسيس على تاريخ الجهاد العلمي لأمتنا..

يرى هذا الكاتب أن علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبوس، وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة؛ لأن إبقاء المصابيح كفر، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين (الرمم).. !!!.

ولست أستغرب من منكر لله أن يفتري على خلقه! ولكن الافتراء يوم يعلن على أنه علم، وعهد الناس قريب بالحقيقة، فإن الأمر يستدعي الكي لا التكذيب المعتاد..

ولقد علم الغرب والشرق أن الحملة الفرنسية لما وطئت أرض مصر قاد الإسلام ــ وحده ــ حركة المقاومة، وقاتل الفرنسيين شبراً شبراً في هذا الوطن المحروب، وأن علماء الدين كانوا قادة هذه المقاومة الباسلة ووقودها المتوهج.

ولما انتفضت القاهرة ضد الغزاة، وكان الجامع الأزهر مصدر الثورة اقتحمت الخيل الفرنسية حرمه، ويقول الجبرتي: «إنهم تفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، ودشتوا المصاحف والكتب على الأرض، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه ــ أي بالوا داخله ــ وشربوا الشراب ــ أي الخمر ــ وكسروا الأواني وألقوها بجوانبه».

ويحكي التاريخ العدل الصدوق أن الشيخ الشهيد سليمان الحلبي كان ــ قبل أن يقتل بأشنع الطرق ــ رابط الجأش، وصرح في التحقيق الذي أجرى معه أنه قتل الجنرال «كليبر» في سبيل الله، وكان ينظر إلى من حوله «بعين رفيعة».

ولقد قبض الفرنسيون على الشيخ أحمد الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الله الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، وعرّوهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة، فسجنوهم إلى الصباح، ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة، ولم تعرف لهم قبور. هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه، ويجيء رجل شيوعي وغد ليقول في حق علماء الأزهر كلهم:

وأنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت إقدر أسيح دمهم في النيل
واخلع ذقونهم وابين أنها تضليل
على اسم مصر

أهكذا يكون تزوير الوقائع، وتشييع شهداء المقاومة الشريفة؟ ولم هذا كله؟

لنثبت بطريق الخادع والكذب أن الدين «أفيون الشعوب»، مع أن كل شيء يصرخ هنا بأنه محرر الشعوب ونافخ نارها ومعلي منارها؟

ونجيء أخيراً للقصة السمجة، قصة أن علماء الإسلام قاوموا تعليق المصابيح على البيوت؛ لأن الظلمة طاعة، والضوء معصية! كما يذكر رجال الأهرام الأغر.

إنه أضاف بهذه القصة بمنقبة لنابليون لم تعرف له، ألم يكتشف أنه جاء من فرنسا بجيشه كي ينير القاهرة؟

واتهم الإسلام بمثلبة لم يوردها أشد أعدائه صغاراً، ألم يقف علماؤه ضد إنارة الشوارع والحارات؟

وقصة تكليف الأهالي بإنارة الطريق أمام بيوتهم أوردها الجبرتي، وذكر حولها بعض وقائع السلب والنهب التي تبعتها.

ورأينا أن هذا التصرف الفرنسي كان إجراء عسكرياً ليحكم الغزاة وثاق القاهرة الجريح، وتشتد قبضتهم عليها، حتى لا يستخفي القناصة والفدائيون في جنح الليل.

لكن سدنة القومية العربية الذين يقودون صحافتنا المعاصرة، يريدون تشويه كل شيء لتحقيق مآربهم، وفرض مبادئهم.

وباسم القومية العربية، يحارب البيان العربي الصحيح، ويتم التمهيد للعامية الهابطة.

وباسم القومية العربية، ينقم العرب على أضوأ اسم في تاريخهم، وأشرف إنسان مشى على الثرى في الأولين والآخرين.. ينقمون على محمد بن عبد الله وينالون من رسالته!

إن هؤلاء الناس ــ بداهة ــ ليسوا مسلمين. فهل هم عرب كما يوصفون أو يتصفون؟

كلا. إن هؤلاء ــ سواء كانوا أجراء أو مخلصين ــ أفضل لإسرائيل من كل أسلحة الدنيا التي ترد إليها»[1].

---

(١) قذائف الحق: ص ٩١ ــ ٩٤.

دعاة فتانون

يضيق الشيخ في ميدان الدعوة بمن سماهم (الدعاة الفتانين) يعني: الذين يفتنون الناس عن دين الله. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ حين طوَّل بالناس، وهو يؤمهم في الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ؟» وكررها ثلاثاً. فهؤلاء الدعاة المنفردين أشد فتنة.

يعلم الشيخ أن أعداء الإسلام في هذا العصر أقوياء، ومع استمتاعهم بمقادير كبيرة من العلم والدهاء، ومع أنهم أحرزوا ضد الإسلام انتصارات كبيرة في أكثر من ميدان، مع هذا كله يقول الشيخ: فلست أخافهم على ديننا قدر ما أخاف على هذا الدين من متحدث جاهل، أو منافق عليم اللسان، أو سياسي يتخذ إلٰهه هواه.

المتحدثون الجهال بحقائق الإسلام وحقائق العصر

أما المتحدثون الجهال فإن قصورهم فتح علينا أبواب شرور كثيرة.

إن قصة الغرانيق لم يخترعها مبشر كذوب، وإنما روجها متحدث أحمق من جلدتنا يتكلم بلغتنا[1].

وفرية عشق الرسول لزينب بنت جحش لم يختلقها عدو كاشح، وإنما ألفها متعالم من عندنا، خفيق العقل والحكم[2]..

---

(١) ووقع فيها مفسرون كالنسفي. (ع.ع).

(٢) ووقعت فيها مفكرة إسلامية كبيرة عادت إلى الله. (ع.ع).

وقد اضطرب السلوك الإسلامي في بناء الأسرة؛ لأن حديثاً موضوعاً ينهي عن تعليم النساء الكتابة، وعن إسكانهن الغرف، شاع بين الناس..

وآفة بعض المحدثين في الإسلام، أنهم يستقبلون المرويات التافهة وأذهانهم خالية أو فقيرة من الوعي بتوجيهات القرآن الكريم وهو دستور الإسلام الأول.

ولا يجوز لفقيه أن يتناول السنن الصحاح وهو جاهل بالقرآن نفسه، فكيف بما هو دون الصحيح من تلك المرويات؟

إن الصورة المكتملة والجميلة للإسلام تؤخذ من الكتاب والسنة، الكتاب أولاً ثم السنة بعد ذلك.

والسنة أساسها ما تواتر ثم ما صح!! أما المرويات الضعيفة وما أكثرها فلها شأن آخر، يعرفه الراسخون في العلم.

وقد وقع في يدي كتاب يوزع في بعض العواصم الإسلامية، ويتأثر به الكثيرون، وجدت على غلافه ثلاثة أسماء (لعلماء) لهم مناصب مهمة، وطالعت الكتاب فاستغربت ما حوى من صور رديئة للإسلام وتعاليمه في قضية اجتماعية كبيرة الشأن.

هل صحيح أن البيت المسلم سجن، وأن الزوجة داخله متهمة إلى الأبد، وأن أنواع الحيطة تتخذ لمنعها من الإثم؟

كذلك يقول الكتاب، فقد جاء به تحت عنوان (نظام سليم لحياة المرأة يتجلى في الحجاب هذه العبارات:

«قال علي رضي الله عنه: ألا تستحون ألا تغارون؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها!! وكان الصحابة رضي الله عنهم يسدون النوافذ وثقوب الجدران؛ لئلا تطلع منها النساء (!) على الرجال أو الرجال على النساء. وقد رأى معاذ بن جبل زوجته تطلع في كوة فضربها، وأقره النبي ﷺ.

وكان علي رضي الله عنه يقول: أكفف أبصارهن بالحجاب (!) فإن شدة الحجاب عليهن خير من الارتياب.. فان استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل! فالحجاب حصن حصين للمرأة يمنع عنها الشكوك والأوهام، ولزومها بيتها خير وأسلم عاقبة...».

نقول: هذا الكلام كله هراء، ولا تصح نسبته لا إلى رسول الله ولا إلى أصحابه، والمرويات التي يعتمد عليها هذا الكتاب ظاهرة المخالفة لما تواتر من خروج النساء إلى المسجد النبوي من الفجر إلى العشاء، يرين الرجال ويراهن الرجال، ولكن مع غض البصر كما أمر الله ورسوله. إن الإسلام لم يأمر بعدم النظر، وإنما أمر بغض البصر.

وقد تصورت المشرفين على هذا الكتاب في مواقف تستحق الدراسة، لقد روى البخاري أن صحابية أحبت أن تكون مع المجاهدين في البحر، تركب الأسطول، وتقاتل في سبيل الله، وطلبت من الرسول أن يدعو الله لها بذلك، فأجابها وطمأنها وبشرها..

لو كان مؤلف الكتاب حاضراً لقال لها: ما لكِ يا امرأة وهذا العمل؟ وما نكلفك أمراً لا تحسنينه؟

امكثي في بيتك ولا تكوني من العصاة!

وتصورت أن المؤلف مع بنت شعيب وهي تقول لأبيها في شأن موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]، أنه سيضربها على فمها ويقول لها: اخرسي ما أدراكِ أنه قوي؟ لعلك نظرت إليه وفكرت فيه يا...[1].

إن هذا النوع من الدعاة هو الذي يبرر الأوضاع الجائرة، ويسند الأنظمة المنحرفة بفتاواه التي يضعها في غير موضعها، وهو الذي يشيع الثقافة الرديئة في الأمة التي جعلت الماركسيين يقولون: إن الدين أفيون الشعوب!

---

(١) علل وأدوية: ص ١٥٩ ـ ١٦١.

إن الظلوم الطاغية يقبض على زمام الحكم بالقوة أو بالحيلة، فيقول هؤلاء في تسويغ وجوده: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

أما أن المنصب أمانة ومسؤولية، ويجب أن يتم بالاختيار الحر والبيعة والرضا، فلا يذكر في هذا المقام.

ومن انتهب ثروة ضخمة أخذها سراً وعلانية، بمقتضى امتيازات منحت له أو لأسرته دون خلق الله جميعاً، فلا يقول أحد له، من أين لك هذا؟ بل يقولون: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

وقد ينشدون هنا قول الشاعر:

ملـــك الملـــوك إذا وهـــب ... لا تســـألـــن عـــن السبـــب

الله يعطـــي مـــن يشـــاء فقـــف علـــى حـــد الأدب!

هؤلاء الدعاة يقولون للشعوب[1]: إن السلطان ظل الله في أرضه، إن عدل فله الأجر، وعليكم الشكر، وإن ظلم فعليه الوزر، وعليكم الصبر. وفي الحالتين عليكم أن تسمعوا له وتطيعوا، وإن فكرتم في نصيحته ففي السر لا في الجهر، فإن النصيحة على الملأ فضيحة. وإياكم أن تكتبوا كتاباً أو تنشروا مقالاً، أو تلقوا محاضرة، تنتقدون بها الأوضاع العوج، فإن هذه دعوة إلى فتنة، والفتنة أكبر من القتل، فاحذروا أن تخسروا فيها رقابكم!

---

(١) هؤلاء الذين يصفهم الشيخ القرضاوي هنا بكل هذه النعوت قلة لا يعتد بها، وهم لا يمثلون فقه أي بلد إسلامي غنياً كان أو فقيراً، ففي كل بلد علماؤه المخلصون.. لكن التعامل مع الواقع قد يكون موضع اجتهاد دون أن يكون هناك إقرار بالمنكر أو رضاً به. (ع.ع).

وهم يقولون للسلطان: إن لك أن تستشير، وليس عليك أن تأخذ برأي المشيرين، وإن كانوا جمهور الأمة، أو أكثرية أهل الحل والعقد، فالشورى معلمة لا ملزمة. فالسلطان هو الراعي المسؤول عن رعيته، وعليه أن يتصرف كما يشاء بمقتضى مسؤوليته.

أما ما ورد عن أبي بكر: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم..

وما جاء عن عمر ــ في قوله لمن قال له على الملأ: اتق الله يا عمر ــ: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.. وقوله: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فلْيُقَوِّمني..

فكل هذا ينسى إذا ذكرت حقوق الشعوب على حكامها. ويقول هؤلاء: احذروا من الديمقراطية ووسائلها، فإنها من المنكرات. وربما كانت من الكفر!

هذه هي الثقافة الدينية التي يروجها هؤلاء (الدعاة الفتانون) كما ساهم الشيخ، وهي ثقافة يقاومها ويندد بها، لأنها تعرض وجه الإسلام دميماً أمام الإنسان المعاصر، وتصد عن سبيل الدعوة إلى الله.

المنافق العليم اللسان

كما شن الشيخ غارته على المتنطعين المتزمتين من أهل العلم، الذين يحجرون على الناس ما وسع الله، ويأخذون الناس بأشد الأقوال حرجاً في القضايا الاجتماعية التي تهم جماهير الناس، نجده كذلك يشدد الحملة على كل «منافق عليم اللسان» ممن يبيعون دينهم بعرض يسير من الدنيا. هؤلاء العلماء المنحلين الذين يرون الموبقات تقترف فيصادقون أصحابها، ويرون أحكام الإسلام ميتة فلا يحاولون إحياءها، ويرون أنصار الحق مستوحين ضعافاً، فلا يؤنسون وحشتهم، ولا يدعمون جانبهم.

وما ظنك بعالم دين يقف ليصفق مع المصفقين، ويهتف باسم واحد من أولئك الذين يحيون على أنقاض الإسلام ورفات المكافحين؟! إن هذا الصنف المنحل الملق لا يصلح لشيء، بل ما يصلح الدين إلا بزواله.

والدعوة الإسلامية منكوبة بالمتزمتين البله والمتملقين اللئام.

ولا تزيدني الأيام إلا إحساساً بهذه الحقيقة: إن حاجة الإسلام إلى الذكاء لا تقل عن حاجته إلى الإخلاص، أو بتعبير القدامى: لا بد من الفقه الواسع إلى جوار النية الخالصة.

لو كان الأمر بيد المتزمتين لبقيت أسواق النخاسة في أرجاء الدنيا تبيع الأحرار على أنهم رقيق، ولو كان الأمر بيدهم ما فتحت مدرسة لتعليم البنات أبداً.

أما حزب المنافق العليم اللسان، فهو وراء فساد المجتمع، وجور الحكام، وضياع الجماهير[1].

---

(١) علل وأدوية: ص ١٦٦.

obeikandl.com

مرتكزات الفكر الدعوى عند الغزالي

يستند الفكر الدعوي عند الغزالي إلى مرتكزات أساسية، يلمسها كل من سمعه، خطيباً أو محاضراً، أو قرأه كاتباً ومؤلفاً.

أول هذه المرتكزات وأعظمها: القرآن الكريم

فالقرآن هو مصدر الشيخ الأول، الذي يغترف منه صباحه ومساءه، فلا يشبع ولا يفتر، وهو جنته الدانية القطوف، التي يتفيأ أبداً ظلالها، ويقتطف من ثمارها، وهو الصاحب الدائم الذي يعايشه تالياً متدبراً، وشارحاً مفسراً.

ومن سمع الشيخ أو قرأ كتبه ومقالاته، منذ فجر شبابه، علم علم يقين: مدى حفاوته بالقرآن، وتذوقه لأسرار بيانه، وتفهمه لأغوار معانيه، وحسن استشهاده به، ووجد له نظرات ووقفات مع الآيات والسور، تدل على أنه ابن القرآن حقاً.

وسنعود لبيان هذا في فصل خاص به.

والسنة النبوية المشرفة هي المصدر الثاني للشيخ، وهي مرتكزه بعد القرآن، يقتبس من مشكاة النبوة، وينهل من معين الرسالة، بها يوضح معاني القرآن، ويعمق مدلولاتها، ويفصل ما أجمله، ويعطي الأمثلة والصور التطبيقية التي حفلت بها السنة لشرح القرآن وبيانه نظراً وعملاً، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

ولا نجد خطبة أو محاضرة أو درساً للشيخ، أو مقالاً أو بحثاً إلا رأيته يحسن سياق الأحاديث الصحاح والحسان محتجاً بها، أو الضعاف مستأنساً بها، وهذه كتبه أمامنا حافلة بهذه الأحاديث.

وسنرجع لتفصيل موقف الشيخ من السنة في فصل مستقل.

ومرتكزه الثالث: التاريخ الإنساني العام، والإسلامي الخاص، وقمته السيرة النبوية، فهي بداية تاريخ الإسلام، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارىء جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه الحاسمة، وأحداثه الكبرى، ومراحله المتلاحقة وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجع هذه الحضارة، وتخلف الأمة وتمزقها، وغلبة أعدائها عليها، وأسباب ذلك.

والداعية الموفق هو الذي يحسن توظيف التاريخ ووقائعه ومواقف أبطاله في خدمة دعوته وتبليغ رسالته، والأمة الموفقة هي التي تستفيد من التاريخ، فهو ذاكرتها التي يختزن فيها ماضيها. وكثيراً ما استشهد الشيخ بشعر أمير الشعراء أحمد شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم ... كلقيط عيّ في الحي انتسباً
أو كمغلوب على ذاكرة ... يشتكي من صلة الماضي انقضابا

ومرتكزه الرابع: الثقافة العامة: الثقافة الدينية، والثقافة الإنسانية، فقد تخرّج الشيخ في كلية أصول الدين، وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهرياً ممتمكناً متفوقاً، وأكد ذلك بدراسته في تخصص الدعوة والإرشاد، ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته في مختلف حقول المعارف.

وإلى جوار هذه الثقافة الدينية والإنسانية الأصيلة نجد ثقافة أدبية ولغوية عميقة، أساسها دراسة الشيخ الأزهرية، ثم قراءته الحرة المستمرة.

ومرتكزه الخامس: الواقع، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع القوى المعادية لهم، الواقع المحلي (المصري) والواقع الإقليمي (العربي)، والواقع الإسلامي (واقع البلاد الإسلامية) والواقع الدولي (خارج عالم الإسلام).

هذا الواقع كتاب مفتوح لدى الشيخ، يقرأ سطوره وما بين سطوره، ويتدبر أحداثه ويتعلم منها ويعلم، ويوظفها في نصرة دعوته وتحقيق مقاصدها.

لا يهتم في الواقع بالجانب المادي أو الحسي فيه، مغفلاً الجوانب الأخرى، بل اهتمامه ــ مع ذلك ــ مركوز على ما وراء المادي والحسي، من الأفكار والأخلاق والعقائد والتقاليد، فهي التي تصنع الإنسان والمجتمعات، وتميز بعضها عن بعض.

موقف الغزالي من السلف والسلفية

وهنا قد يسأل السائلون: ما موقف الغزالي من السلف والفكرة السلفية، وبخاصة أنه قد اشتبك مع دعاة السلف[1] في كثير مما كتبه في السنين الأخيرة، ووقف في الصف المقابل لهم في أغلب ما يثيرونه، ويجعلونه من ركائز دعوتهم؟

والواقع أن الشيخ الغزالي ــ مثل شيخه حسن البنا ــ رجل سلفي، فالسلفية من خصائص الدعوة أو المدرسة التي آمن بها، وانتمى إليها، ووظف جهده في نصرتها. وقد قال حسن البنا في وصف هذه المدرسة: إنها دعوة سلفية...

---

(١) الحقيقة أن اشتباك الشيخ الغزالي وقع مع بعض غلاة السلفية.. أما جمهور السلفيين فلم يشتبكوا مع الشيخ حتى وإن اختلف بعضهم معه في الرأي بأدب وتوقير. (ع.ع).

وطريقة سنية... وحقيقة صوفية... وجماعة ثقافية... وهيئة سياسية... إلخ وهذا ما يؤمن به مفكرنا الغزالي.

ولقد كتب الشيخ في وقت مبكر ــ أوائل الخمسينات ــ كتابه: (عقيدة المسلم)، فرجح فيه مذهب السلف، وقاوم الشرك كله أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، وانتصر للتوحيد الحق وإن كان في الكتاب نفس أشعري، وخصوصاً في التقسيم والتبويب، وهذا لا يخلو منه أزهري، فالأزهر ــ مثل الزيتونة والقرويين وديوبند (أزهر الهند) وغيرها من الجامعات الدينية في العالم الإسلامي ــ كلها أشعرية أو ماتريدية. وقد قلت في أحد المؤتمرات يوماً لمن سألني عن الأشاعرة: إن الأمة الإسلامية، منذ قرون ــ في جملتها ــ أشعرية!

فما يضير الشيخ أن يتأثر بالأشعري أو الماتريدى، أو حتى المعتزلة، أو بالفلاسفة! المهم ألا يعبّد نفسه لطائفة منهم، تحكم فكره، وتسلبه حريته. فالمرجع الأعلى عنده القرآن والسنة.

وقد استفاد إمام السلفيين ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم من تراث المعتزلة، واقتبسا منه ما كان حقاً في قضايا أفعال العباد، والحُسن والقبح،، والحكمة والتعليل، وذكر ابن القيم أن منهجه أن يأخذ الحق حيث وجده مع أي طائفة، ويدع الباطل من أي طائفة، وأن يجمع الحق كله بعضه إلى بعض، ويكون من مجموعه مقولته.

على أن الغزالي نقد منهج علم الكلام الأشعري الذي يدرس في الأزهر نقداً شديداً؛ لأنه خاض في مسائل ميتافيزيقية لا طاقة للعقل البشري بها، ولا طائل من وراء بحثها، مما يتصل بالذات والصفات، وهل هي عين الذات أو غيرها؟ أو لا عين ولا غير؟

وهو يفضل أن يتم تعليم العقائد على دعامتين:

الأولى: القرآن الكريم، الذي يخاطب الفطرة السليمة، والعقل الرشيد،

ويلفت النظر إلى الكون والإنسان والتاريخ، لتكون مسرحاً للتفكر، ويبتعد عن الألغاز والتعقيد. وهو يتفق هنا مع الإمام ابن الوزير في ترجيح (أساليب القرآن على أساليب اليونان).

والثانية: العلم الحديث، وما كشف من آيات الله في كونه، ومن بدائع صنع الله في خلقه: في عالم الأفلاك، وفي عالم الجمادات، وفي عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان. وفي العوالم كلها من الذرة إلى المجرة.

وبذلك يلتقي كلام الله في كتابه، مع فعل الله في كونه، وكلاهما يدل عليه، ويهدي العقول والقلوب إليه.

الغزالي يؤمن بالسلفية التي كان عليها الصحابة والتابعون، فَهْماً متكاملاً للإسلام، وإيماناً حيّا وصادقاً بمُنزِّله وبمُبلِّغه، وعملاً بما جاء به من أحكام، والتزاماً بما هدي إليه من أخلاق، ودعوة إليه على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وجهاداً في سبيله بالنفس والمال واللسان.

يقول الشيخ حفظه الله:

إن السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعاً من جزيرة العرب، وتحيا على نحو اجتماعي معين.

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون.

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل.

* وقد رأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وهذا خطأ؛ ففقه أحمد أحد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا.

∴ ورأيت ناساً يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص، وهذا خطأ، فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه.

وقد كان من هؤلاء من تسموا أخيراً بأهل الحديث، وسيطرت عليهم أفكار قاصرة في فهم الأخبار المروية، وأحدثوا في الحرم فتنة منكورة.

والحديث النبوي ليس حكراً على طائفة بعينها من المسلمين، بل إنه مصدر رئيسي للفقه المذهبي كله.

∴ ورأيت ناساً تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها، ويرفضون الحديث في التلفزيون[1] مثلاً؛ لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام!، ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار!! وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد!

∴ ورأيت ناساً يتبعون الأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، من كل رأي قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم، وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة!

وهؤلاء أيضاً لا سلف ولا خلف، إنهم أناس في انتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

∴ ورأيت ناساً يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم: ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار، اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم، وباعتهم كفرانا وعدوانا ليكونوا لكم خدماً، وهم في الحقيقة سادة؟

---

(١) مرة أخرى أقول: إن هؤلاء أقل من كلمة «أقلية» ولا يجوز أن يعطوا أكثر من حجمهم. وفكرهم إلى زوال. (ع.ع).

ما السلفية التي تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين ضاقوا بسياسة الملك فيصل في تحريرهم؟ وإلغاء بيعهم وشرائهم، إن الرجل الشهيد أولى بالله منهم.

∴ ورأيت ناساً يقولون: إن آية ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة: ١٩٠] مرحلية، فإذا أمكنتنا اليد، لم نُبق على أحد من الكافرين!

قلت: ما هذه سلفية، هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصينة، وأولئك لا يؤمنون على تدريس الإسلام لجماعة من التلامذة، بَلْه أن يقدموا في المحافل الدولية والمجامع الدولية.

إن العالم الإسلامي الآن متخلف حضارياً، ومضطرب أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، وبينه وبين الأمم القائدة الصاعدة أمد بعيد.

هذه الأمم تعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه.

والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهادية، ولكي تؤدي أمته رسالتها يجب عليها أمران:

الأول: أن تطوى مسافة التخلف الحضاري، والاضطراب الإنساني الذي يشينها ولا يزينها.

والثاني: أن تتقدم بشرف وكياسة لتقول للناس كلهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ٤٧١].

ولكي ننجح في عملنا يجب أن نقتفي آثار سلفنا.

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة، أساسها العقل الحر المكتشف الدؤوب.

إن هذا العقل عندما رغب عن (البحث في الذات العليا وحقيقة الصفات) كان يحترم نفسه عندما توقف، والعلم المعاصر نجح أيما نجاح عندما بحث في المادة التي بين يديه ولم يبحث في ربها ــ سبحانه ــ فأنى له البحث فيما لا يملك ولا يقدر؟

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية، ونقبل المذاهب الفقهية، ونضع الشبكة القانونية التي يتطلبها انتقال الحياة من طور إلى طور.

من أجل ذلك نهشّ للتقدم العلمي ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا.

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البُلْه وذوي العقد النفسية[1] من قيادة الفكر الديني، فإنهم غشاوات على البصائر، وحجب على الضمائر.

إننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر في سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة في هذه الميادين الخطيرة، ومحتاجون إلى فقهاء يهيمنون على شؤون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف.

إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا حضارة معجزة، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيى[2].

---

(١) هذا الوصف يؤكد ما نحرص على ذكره حول هذه الأقلية الرافضة التي يجب أن تعامل معاملة المرضى (ع.ع).

(٢) انظر: دستور الوحدة الثقافية ص ١٢٠ ــ ١٢٤، ط دار الأنصار بالقاهرة.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

ليس كل إنسان يصلح أن يكون داعية، فقد يكون المرء عالماً كبيراً، ولا يكون داعية كذلك. فالداعية له مؤهلات أو خصائص قد لا تتوافر لغيره من العلماء الباحثين (الأكاديميين). والدعاة متفاوتون في حظهم من هذه الخصائص، وللشيخ الغزالي من هذه الخصاشص، القدح المعلى.

١ ــ العقل العلمي المبصر

وأول هذه الأدوات المطلوبة: العقل الواعي البصير، الذي يستطيع أن يدعو بالحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا العقل هو الذي يمكّن صاحبه من الدعوة على بصيرة كما أمر الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

هذا العقل هو الذي يستطيع أن يوظف ما يقرؤه في خدمة الدعوة التي يؤمن بها، سواء كانت قراءة في الدين، أم قراءة في الأدب، أم قراءة في العلم.

وهذا العقل هو الذي يستطيع أن يوظف التاريخ، ويوظف الواقع، ويوظف الثقافة كلها، في سبيل الدعوة والرسالة.

وقد أوتي الشيخ هذا العقل البصير الناقد، الذي يرفض التقليد الأعمى، سواء كان تقليداً للشرق القديم أم للغرب الجديد، ولا يلقى زمامه لأحد ليقوده كما يشاء دون أن يدري إلى أي وجهة هو ذاهب، بل هو عقل حر متفتح، يقبل ما يقبل من الأفكار، ويدع ما يدع منها، وفق ما يلوح له من الأدلة والبراهين، وما يرجع إليه من القيم والموازين، ولا تهوله الأسماء ولا الألقاب، بل هو بحاثة عن الحق حيثما كان، ومع أي كان.

وربما كان هذا العقل الناقد الثائر هو الذي جلب على الشيخ كثيراً من المتاعب في رفضه لآراء وأقوال يقدسها بعض الناس، ويضفون عليها ما يشبه العصمة، وفي نقده الحاد لبعض الأفكار التي يراها ضارة بدعوة الإسلام، سواء من داخل الساحة الإسلامية أم من خارجها.

ومن العبث الذي لا يقبل شرعاً ولا عقلاً ولا عرف: أن يطالب الشيخ بأن يتنازل عن عقله لعقل غيره، وأن يدع ما يقنع به من أجل اقتناع فلان وعلان، وأن يترك اجتهاده ليعمل باجتهاد الآخرين، فهذا ما لا يسيغه العقل، ولا يجيزه الدين.

قيمة العقل في الدين

في بواكير ما كتب الشيخ: في (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) نقرأ من هذه الفقرة تحت عنوان (قيمة العقل في الدين):

«إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البلهاء، أو نغمط الحمقى حقهم ــ إن صحت لهم حقوق ــ بل إننا نستوحي هذا الحكم من نصوص القرآن الكريم نفسه. فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في

شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والعقول الذكية وحدها هي التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزغات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال أو الأنذال، من المصلحين أو من المفسدين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية، ليس أمراً هيناً، فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف، والنظر في الجديد نظرة تلطف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطواف في آفاق العوامل المادية والأدبية ــ هذه جميعاً وسائل لترقية العقل الإنساني، ثم هي بعدُ وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه»[1].

عقل يرد الشبهات

هذا العقل البصير هو الذي استطاع به الغزالي أن يفند الشبهات، ويدفع

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية: ص ١٠٥، ١٠٦.

المفتريات، التي يثيرها أعداء الإسلام، على اختلاف مللهم ونحلهم، وخصوم الفكر الإسلامي على اختلاف توجهاتهم.

بهذا العقل رد الشيخ على الذين أثاروا شبهاً على العقيدة الإسلامية من الشيوعيين والمنصّرين، والذين أثاروا شبهاً على الشريعة الإسلامية من العلمانيين والمتغربين، والذين أثاروا شبهاً على الحضارة الإسلامية من المستشرقين والكتاب الغربيين.

أكتب هذه السطور وبين يدي كتاب قديم للشيخ ظهر منذ أكثر من ربع قرن، هو كتاب: (قذائف الحق) في طبعته الرابعة، التي قدم لها الأخ عبد الله العقيل.

وفي هذا الكتاب ناقش الشيخ بعقله البصير طوائف شتى، وكرّ على شبهاتهم شبهة بحجج الإسلام وبراهين القرآن.

الرد على أباطيل العهد القديم

ناقش الشيخ اليهود وما ذكروه عن الخالق جل شأنه في أسفار (العهد القديم)، وكيف وصفوا الله سبحانه بالعجز بعد أن خلق الكون في ست أيام، فتعب، واستراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، ولهذا يحرم اليهود العمل والكدح في هذا اليوم. حتى جاء في التوراة: أن موسى عليه السلام أمر بأن يقتل رجماً أحد الحطابين الذين أبوا إلا الكدح في هذا اليوم!

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [قّ: ٣٨].

ثم تبع هذا الحديث عن عجز الله تعالى حديث آخر عن جهله! فقد كان الرب الإله يتمشى في الجنة عند هبوب ريح النهار، فسمع آدم وزوجه صوت الرب، فاختبآ منه. فنادى الرب آدم: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك، فخشيت لأني عريان، فاختبأت! فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة...؟

أين هذا مما ذكره القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

وتبع هذا الجهل حزن وقلق غريب، فإن الرب الإله، يبدو وكأن ملكه أصبح مهدداً بهذا التمرد الآدمي. فقد ارتكب آدم الجريمة الأولى وأكل من شجرة المعرفة، وارتفع بهذه المعصية إلى مصاف الآلهة، فقد غدا يدرك الخير والشر. وكان الرب عندما خلقه حريصاً على بقائه جاهلاً بها.

ومن يدري، فقد يزداد عصيانه وتمرده، ويأكل من شجرة الخلد، ويظفر بالخلود. «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه».

هذا ما يقوله سفر التكوين من التوراة الحالية، والذي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعاً. يقول الشيخ: «إن الإله في هذه السياقات الصبيانية كائن قاصر، متقلب، ضعيف. وما أشك في أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغي لها. وأول ما نستبعده حين نقرأ هذه العبارات أن تكون وحياً أو شبه وحي»[1].

وما قالته التوراة عن (الله) جل جلاله، قالت أسوأ منه وأدهى عن أنبياء الله ورسله! فنسبت إليها من الزنى والسكر والفجور واستباحة الدماء ما يخجل المرء أن يصف به إلا السفلة المجرمين من الناس.

وقد ساق الشيخ أمثلة لذلك واستنكرها: نوح السكير وأسرته، لوط الزاني، إبراهيم الديوث، يعقوب المحتال!

إن مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ليس الذي قرره (ميكافيللي) كما يقال، بل التوراة[2].

---

(١) قذائف الحق: ص ٢١ ــ ٢٥.

(٢) نفسه ص ٢٦ ــ ٣١.

الرد على تثليث النصارى

وبهذا العقل المبصر ناقش الشيخ النصاري في عقيدة (التثليث)، وبين منافاتها لعقيدة التوحيد، كما بيَّن استحالة كون الثلاثة واحداً، كاستحالة كون الواحد ثلاثة!

وبهذا العقل أوضح تهافت الأساس العقلي والديني لعقيدة الصلب والفداء. يقول الشيخ:

«إن المسيحيين يقولون: إن الله (الابن) صُلِب! لكنهم يقولون كذلك: إن، الأب هو الابن، وهما ــ والروح المقدس ــ جميعاً شيء واحد!

إن كان الأمر كذلك فالقاتل هو المقتول! وذلك سر ما قاله أحد الفرنجة المفكرين: (خلاصة المسيحية: أن الله قتل الله لإرضاء الله!!)»[1].

الرد على الإلحاد الشيوعي

وبهذا العقل رد الشيخ على أباطيل الملاحدة الشيوعيين، الذين ينكرون وجود الخالق سبحانه.

دار هذا الحوار بين الشيخ وواحد منهم ننقل منه هذه السطور:

«قال الملحد: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق!!

قال الملحد: لا تلقني في متاهات، أجب عن سؤالي؟.

قلت له لا لفّ ولا دوران، إنك ترى العالم ليس له خالق، أي أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟

---

(١) نفسه ص ٤٣.

obeikandl.com

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدّق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها؟ وإذا كنت ترى أن إلٰهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه. . !!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير؟!

ومن ثم فإنني أعود لسؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين. . .

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين. .

إنني ــ أنا وأنت ــ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها. . .

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمراً صناعياً يدور في الفضاء، فقلت أنت: انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه. وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر. .»[1].

---

(١) قذائف الحق: ص ١٦٣ ــ ١٦٤.

وحدة الوجود خرافة

وبهذا العقل أيضاً رد الشيخ على غلاة المتصوفة الذين قالوا بـ (وحدة الوجود)، وأذابوا الحدود بين الخالق والمخلوق بين الرب الأعلى وهذا الكون، الذي خلقه فسواه.

يقول الشيخ تحت عنوان: (وحدة الوجود خرافة):

«إن الشعور بالوجود الإلٰهي يجب أن يكون حياً غامراً لدى أولي الألباب...

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الموجد هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

إن الآلة شيء غير من اخترعها، والقصر شيء غير من بناه...

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتباً وبعث رسلاً...

فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير في ذلك كله؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التي يتكون منها العالم، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية؟

إن القول بوحدة الوجود هو ــ عند التأمل ــ نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها...

فالماء مثلاً مادة معروفة، وقد شرح الكيميائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسيين.

وهي من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء.

فالزعم بأنها إلٰه أو جزء إلٰه تخرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلٰهي.

ومن ثم قلنا: إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتوٍ للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه!»[1].

ويحذر الشيخ من بعض (التعبيرات الموهمة) في هذا المقام الخطير، فيقول في كتاب آخر:

«ولا بد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالَم، فإن بعض الناس يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصالاً تاماً.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول:

إنه يرى الله في كل شيء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه، والقول بهذا كفر بالله وبالمرسلين»[2].

مناقشة المستشرقين

وبهذا العقل ناقش الشيخ كبار المستشرقين، ورد على مطاعنهم حول الإسلام: قرآنه الكريم، ورسوله العظيم، وعقيدته الحنيفة، وشريعته السمقة،

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٥٨، ١٥٩.

(٢) قذائف الحق: ص ١٦٨.

وحضارته المثلى، وقد تجلى ذلك في كتابات شتى، ولا سيما في كتابه: (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين)، الذي رد به على المستشرق الشهير (جولدزيهر) في كتابه: (العقيدة والشريعة في الإسلام) المترجم إلى العربية.

مناقشة القوميين

وبهذا العقل أيضاً رد على غلاة القوميين العرب، الذين أرادوها قومية علمانية مبتوتة الصلة بالإسلام، تتغنى بأمجاد الإسلام، ولكنها ترفضه مرجعية عليا لها، ولا تقبل شريعته حكماً في قضاياها، وهذا مبثوث في كثير مما كتب، ولكنه مركز في كتابه: (حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي). وهو في الأصل محاضرات ألقاها على طلبة كلية الشريعة بالأزهر بتكليف من عميدها الشيخ محمد المدني ــ رحمه الله ــ وقد كانت المادة مقررة في عهد عبد الناصر، والحديث فيها شائك وخطر، ولكن الشيخ عرض فكرته بما يثبت للعروبة فضلها ومكانتها، ولكنه لا يغنيها بحال عن الإسلام، الذي صنعها، ورفع ذكرها وخلدها وجعل لها رسالة في العالمين.

الرد على مزاعم الروحية الحديثة

وبهذا العقل البصير رد كذلك على (مزاعم الروحية الحديثة) التي تقوم عليها جمعيات شتى في بلاد الغرب، مشبوهة النسب والصلات، تروج لدين جديد، له تعاليم جديدة، هي ــ كما يقول الشيخ ــ مجموعة خرافات، نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء. وهي تقوم على وحدة الوجود، فالله والعالم شيء واحد!. وعلى تناسخ الأرواح، وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن. فلا فناء للدنيا، وليس هناك يوم للبعث والحساب العام. وعلى أن الشرائع القديمة قد استنفدت أغراضها، وأن الروحية الحديثة هي التي ستهدي العالمين بوحيها العصري المتقدم!

إننا لا نشك أن مبادىء هذه الروحية الحديثة هي من عبث مردة الجن، الذين استغفلوا نفراً من أبناء آدم، واصطادوهم إلى هذه المجالس: مجالس الأشباح والأوهام، أو مجالس تحضير الأرواح كما يقال، ليملوا عليهم هذا المنكر من القول[1].

٢ ــ النفس الشاعرة

لم يقل الشيخ الغزالي الشعر كلاماً موزوناً مقفى، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذي يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى في كل نبتة في الأرض، أو نجمة في السماء، روحاً توحد الله، ولساناً يسبح بحمد الله.

وكم له من كلمات صورتها صورة النثر، وروحها روح الشعر.

ومن رأيه: إنه لا يستطيع أن يخدم الإسلام بحق إلا ذو نفس شاعرة.

وقد سمعته يقول ذلك عندما زار الشيخ الندوي مصر سنة ١٩٥١م، وأهدى إلى الغزالي بعض رسائله، ومنها: من العالم إلى جزيرة العرب، ومن جزيرة العرب إلى العالم.

وفيها يصور الشيخ الندوي ــ وهو العالم الداعية الأديب ــ العالَم يوجه رسالة إلى جزيرة العرب، وهي رسالة عتاب منه على تخلفها عن دعوتها له، ومناشدة لها أن تقوم في الزمن الأخير بما قامت به في الزمن الأول، من حمل رسالة الهداية التي حملها ربعي بن عامر والصحابة إلى الفرس.

ورسالة أخرى من جزيرة العرب إلى العالم تحمل هذه الروح.

من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص،

---

(١) انظر: فصل (مزاعم الروحية الحديثة من كتاب: ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ٣٤٣ ــ ٣٦١.

وأسلوبه الأصيل، لا يقلد أحداً، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو في العلم أو في الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ.

وكم قلت في مناسبات مختلفة: إن الغزالي موهبة أدبية من طراز نادر، ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيراً من الأسماء المعروفة.

ثم قرأت بعد ذلك ما يؤكد هذا المعنى للكاتب الصحفي الكبير الأستاذ أحمد بهجت، في عموده اليومي بصحيفة الأهرام القاهرية.

وإن كان الغزالي لم يقل الشعر، فإنه يتذوقه أعمق التذوق ويطرب له، ويتخذ منه أداة للبيان، وسلاحاً في معركة الدعوة ويستشهد به في محاضراته إذا حاضر، وفي خطبه إذا خطب، وفي مقالاته إذا كتب، وقلما استمعت إلى الغزالي خطيباً أو محاضراً أو محدثاً إلا رصع كلماته ببعض أبيات من الشعر، تقع موقعها من العقل والقلب.

ومما ساعده على ذلك محصوله الكبير، الذي يحفظه من شعر العرب، قديمه وحديثه، جاهليه وإسلاميه، وهو ينتقي من روائعها ما يستشهد به، فيحسن الاستشهاد، وله احتفاء خاص بشعر أبي الطيب في الأقدمين، وشعر شوقي في المحدثين. وأحسبه يكاد يحفظ (ديوان الحماسة) كله لأبي تمام حتى شعر الغزل العف نراه يتغنى به وينشده لنفسه ولغيره، وكثيراً ما ذكر في هذا المقام غزل النابغة:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلاً، ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها ... في جيد واضحة الخدين معطار

على حين يرفض الغزل الداعر، كغزل امرىء القيس، أو عمر بن أبي ربيعة!

وأكثر ما يحتفل له من الشعر نوعان:

الشعر الإنساني

النوع الأول: الشعر الإنساني، الذي يدور حول كرامة الإنسان وحريته وحقوقه، ويحفزه إلى اقتحام المخاطر، وخوض الغمرات، ومقاومة الاستبداد والطغيان، الشعر الذي يدعو إلى الإيثار، ويقاوم الأثرة والأنانية، مثل شعر حاتم الطائي الذي كثيراً ما يتمثل به معجباً:

إن كنت رباً للقلوص[1] فلا تدع ... رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها واردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب[2] فعاقب

وقول عروة بن الورد:

دعيني أطوّف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم ملمة ... وليس علينا في الحقوق معول؟

ومن أوائل ما سمعته من الشعر الذي يرويه قول حوط بن رئاب الأسدي:

ذببت للمجد والساعون قد بلغوا ... جَهْدَ النفوس، وألقَوْا دونه الأزُرا
فكابروا المجد حتى مل أكثرهم ... وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وفي معتقل الطور سمعته يتمثل بشعر أحمد شوقي في قصيدته عن (توت عنخ آمون) وفيها يخاطب الفرعون:

زمان الفرد يا فرعون ولّى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا

وكان ذلك دأبه طوال مدة الاعتقال: تأكيد معاني الحرية والكرامة

---

(١) القلوص: الناقة.

(٢) العقاب: التعاقب والتناوب في الركوب.

والاستبسال في كفاح الفراعنة والمتجبرين، برغم ما لا يخفى من وجود آذان وعيون تنقل إلى السلطات كل ما يقال أو يفعل داخل الأسوار.

الشعر الرباني

النوع الثاني: الشعر الرباني، الذي يتحدث عن الله تعالى وكتابه ورسوله، ويعمق اليقين بلقاء الله تعالى وحسابه، وهو لهذا يطرب لشعر البوصيري في (البردة)، وإن أنكر عليه شروده عن الصواب في بعض الأبيات، وكذلك (همزيته) الرائعة، وإن لم ترج رواج البردة عند جمهور الناس. وكثيراً ما ردد مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء؟ يا سماء ما طاولتها سماء
إنما مثّلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجوم الماء

كما يطرب لشعر شوقي في مدائحه النبوية، نهج البردة، والهمزية وغيرهما، ويتأثر غاية التأثر إذا سمع قصيدته (إلى عرفات الله) تغنيها أم كلثوم، وتدركه حالة من الوجد، يبكي معها طويلاً، حتى إن أولاده ليشعرون بذلك، فيدعونه في استغراقه الوجداني، لا يقطعون عليه بكلام ولا سلام، ويزداد خشوعاً وتأثراً حينما يناجي الشاعر ربه منيباً إليه، راجياً خائفاً:

ويا رب هل تغني عن العبد حجة وفي العمر ما فيه من الهفوات؟

ويأسى لحال المسلمين، وما انتهوا إليه، برغم ما بين أيديهم من قرآن وسنة، وينشد مع شوقي:

شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سبات!
بأيمانهم نوران: ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات؟!

وهو يختار من شعر المحدثين والمعاصرين المجيدين ما يؤكد القيم والمعاني التي يدعو إليها. فتجد عنده من شعر حافظ وأحمد محرم ومحمود غنيم،

ومصطفى حمام، وعمر الأميري وغيرهم، حتى إنه أحياناً ينقل قصائد كاملة مطولة في بعض كتبه مثل قصيدة: (وقفة على طلل) لمحمود غنيم، وقصيدة (علمتني الحياة) لمصطفى حمام، وقصيدتي عن (السعادة)، وفي ختام مقدمة كتابه: (قذائف الحق) استشهد بأبيات شاعر التحليقات الإيمانية والنجاوى المحمدية الأستاذ الأميري وقد ذكرناها في خاتمة كتابنا.

كما يستشهد بشعر ابن الرومي في وصف المتهجدين، وسنذكرها في هذا الفصل.

٣ ــ الروحانية الدافقة

ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالي: روحانيته الغامرة الدافقة.

وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدث الناس عن الله جل جلاله، ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم بهُدى كتابه الكريم، وهدى رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم.

وهذه الروحانية الدافقة الصادقة لها مصدر فذ أوحد، هو حسن معرفة الله تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأنها رأي عين.

هذه الروحانة ليست مجرد دعوى تدعى، ولا محض كلام يقال، أو شعار يرفع، أو مظاهر تخدع، وليس وراءها تقوى حقيقية. فالتقوى إنما هي خشية تعمر القلب، وليست عبارات يتشدق بها اللسان. والرسول صلى الله عليه وسلم يشير إلى صدره ويقول: «**التقوى ها هنا**»، ويكررها ثلاثاً. والقرآن يضيف التقوى إلى محلها الأصيل، إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

المدار إذن على صدق المعرفة والإيمان بالله تباركت أسماؤه. يقول الغزالي: «درجات المؤمنين في معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد».

لا تقبل هذه المعرفة ــ ابتداء ــ إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع.

فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح ــ كالشرك أو التجسيد ــ ردت في وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئاً...

والمعرفة الصحيحة مراتب، فالذي يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة.

ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شيء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض، ونظر مختلط.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية، الأولى تبقى على اختلاف الظروف، والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة.

فقد تعرف إنساناً معرفة جيدة، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار...

والذي يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه، فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه، غير الذي أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبب والتردد على ساحته، فهو مُوالٍ له، معتزّ بصلته.

والمعرفة الموقنة الناشطة التي تجعل المؤمن يسارع في الخيرات، وينهض بالتكاليف، غير المعرفة الكسول الوانية التي يصحبها التفريط في الواجب أو استثقال أدائه.

والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح، غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات...

والمعرفة المورثة للتوكل على الله في مواطن القلق والفزع، غير المعرفة التي تجعل المرء ضارعاً للخلق ذليلاً أمام أصحاب الحول والطول...

إن الإيمان يزيد وينقص، وآثاره في النفس والحياة تمتد وتنكمش.

والزيادة والنقصان ليسا في أصل المفهوم العقلي وإنما في كمه وكيفه.

فالصوت من الفم العادي يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق، بعيد الصدى.

والإيمان في بعض الناس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر، وتهيمن على الحركات والسكنات، وتجعل صاحبها في نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته...

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون في أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد في نفوسهم من أبعاد وآماد.

ومن الجور أن نسوي بين العميق والضحل، والمتين والضعيف...

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا...

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل، ورياضة متصلة...

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا في هذا المضمار، فإن الفالحين يغرسون جميعاً لكن حصيلة الثمر في كف القدر.

وما من من جهد يذهب هدراً، حاشا لله، فهو القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمشكلة ليست في أن الله جل جلاله يثيب من قصده... فهو مثيب مجيب، وإنما الذي يجب أن يعرف بحسم أن العبد في هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل.

وأن ما يأخذه إن كان أجراً على عمل فلن يعدو المرء مكانه، أما إن كان تطولاً من ذي الجلال والإكرام ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

«ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى، متعرض للمنحة، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه»[1].

الغزالي بين العقل والقلب

يشيد الغزالي بالعقل، وينوه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحمّلون الدين وزر بلادتهم وغباوتهم، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة (البله)، في حين يجعل القرآن أهل الجنة هم (أولي الألباب)!

ويغذي هذا الاتجاه بالحجج والأمثلة، من نصوص الدين، ومن تاريخ الأمة في عصور ازدهارها، حتى يكاد يحسبه قارئه رجلاً (عقلانياً) محضاً. وقد رأينا (العقل البصير) أول مؤهلاته.

الغزالي القديم والغزالي المعاصر

والواقع أن الغزالي المعاصر، كسميّه الغزالي القديم، حجة الإسلام، فقد أشاد ذلك بالعقل، وأقام عليه الوحي والدين، وجعله مناط التكليف، ولكنه هو هو الغزالي صاحب (الإحياء) و(ميزان العمل) و(منهاج العابدين) وغيرها من كتب التصوف والسلوك.

وغزالينا لا يجحد دور (القلب)، ومكانة (الروح) في الدين، بل الدين الحق عنده: عقل رشيد، وقلب سليم.

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب: ص ١٤٩ ــ ١٥١.

وهذا المعنى الرباني مبثوث في كل كتبه، ففيها تجد فكر الفيلسوف، وقلب العاشق، والعبادة عنده تقوم على الحب، أكثر مما تقوم على الخوف.

الجانب العاطفي في الإسلام

وفي كتابه: (الجانب العاطفي في الإسلام) إبراز لهذا الجانب المهم، الذي صد عنه بعضُ الناس، نظراً لما شابه من بعض الشركيات في العقيدة، والبدع في العبادة، والسلبية في التربية، والإهمال لسنن الله في الكون والحياة.

وهذا الكتاب مصنف في التصوف، مكتوب بلغة سلفية معاصرة، وقد شرح فيه معاني الإسلام والإيمان والإحسان في ضوء القرآن والسنة، بعيداً عن جدل المتكلمين وشطحات المتصوفين، كما بين عناصر الكمال النفسي (الروحي) التي يريدها الإسلام من المسلم، وفي هذا الباب ألقي الضوء على كلمات من (حِكَم) ابن عطاء الله السكندري الشهيرة[1]، كساها بها معاني حية، وألبسها لبوس العصر، دون أن يتقيد بكلام الشراح، الذين قد يختلط في شروحهم الحق بالباطل.

شرح عصري لبعض حكم ابن عطاء

وأذكر لك فقرتين مما شرحه الشيخ من (الحكم):

يقول ابن عطاء الله:

«أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه! فأي علم لعالم عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه»؟!

---

(١) بعض الناس يتعامل مع الحكم العطائية دون أن يقرأها، مع أنها تمثل رافداً من أزكى روافد الصلة الحسنة بالله دون شطط أو تجاوز (ع.ع).

ويشرحها الغزالي فيقول:

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض، أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها ولم يستشف منها، فإن جراثيمها تستشري في أوصاله حتى تأتي عليه.

وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

وقد قال الله تعالى على لسان أحد أنبياءه المطهرين: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: ٥٣][1].

فإذا وجدت أمرأً راضياً عن نفسه فافقد منه الأمل؛ لأنه ينطوي على ركام من العيوب والنقائض وهو لا يلتمس الخلاص منها، بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها.

وهيهات لمثل هذا اكتمال أو نجاة.

والعلم النظري لا يرفع قدر أصحابه، فأي قيمة لشخص يختزن في رأسه قدراً من المعلومات ولكن نفسه طافحة بآثام لم تعالج، وخشونة لم تهذب، ثم هو ــ مع ما يختزن من معرفة ــ لا يدري أنه عليل.

مثل هؤلاء يكون علمهم آفة يقوي جهالاتهم ولا يزيلها، ويغرهم بما أوتوا بدلاً من أن يزيل من أنفسهم ما يسوءها.

وأفضل من هؤلاء رجل قليل المعرفة وعميق الإخلاص، كثير التفتيش عن عيوبه، مجتهد في تزكية نفسه، وترقية أحواله، إن هذا أرجى عاقبة وأرقى عاجله من العلماء الكبار إذا رضوا عن أنفسهم وغفلوا عن إصلاحها...

ويقول صاحب الحكم:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ

---

(١) والصحيح ــ كما يدل عليه السياق ــ أنها على لسان امرأة العزيز، لا على لسان يوسف، وإن كان ما ذكره الشيخ هو الأشهر عند المفسرين وغيرهم.

﴿رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وانظر إلى قوله ﷺ: «**فمن كان هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1]. فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم.

ويشرحها شيخنا بقوله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١].

هذه آيات خمس، الثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان، علوها وسفلها وما انبث بها من حياة وأحياء، والاثنان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكون فتحدثنا عن وجوده ثم توحيده.

ولفت الناس هنا إلى الله، جاء بصيغة عجيبة: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾ [الذاريات: ٥٠]. وهذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويخاف.

والحق أن الانحصار في الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية، لا يرضاها لنفسه أريب.

إن من له أدنى مسكة يعرف ــ من العالمين ــ رب العالمين، ويعرف ــ من الأكوان ــ صاحب هذه الأكوان!!

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من بدائع ذراته إلى روائع مجراته، شاهد غير مكذوب على أن له خالقاً أكبر وأجل. . .

وإنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفه عليه.

---

(١) رواه البخاري.

ولكن: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [النحل: ٤].

والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى، وصفات عظمى..

والناس صنفان: صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها، ولا نتحدث الآن مع هؤلاء...

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقائه، ولكنه هائم في بيداء الحياة، ذاهل وراء مطالب العيش، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود، أو يتمحض لرب العالمين.

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث...

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم، بل هي مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدأوا المسير إلى الأمام.

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه، أو بمطالبهم منه عن الذي ينبغي له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى!

إنهم مقيدون بسلاسل مثبتة مع أنانيتهم، فهم يسيرون ولكن حولها، لو حسنت معرفتهم لله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية، بل لطغى عليهم الشعور به، وبما يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدأوا إلا في ساحته، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه، على حد قول أبي فراس:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[1]

---

(١) هذا البيت ليس لأبي فراس، وإنما هو للمتنبي في مدح كافور، ولفظه في ديوانه:
إذا صح منك الود فالمال هين ... وكل الذي فوق التراب تراب!

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مآربهم، كحركة بندول الساعة، لا تتجاوز موضعها على طول السعي، أو هم ــ على حد تعبيره ــ كحمار الرحى: ينتقل من كون إلى كون، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصداً، وأن يتفصى تفصياً عن ألوف الأربطة التي تشده إلى الدنيا، وتخلد به إلى الأرض!!». اهـ.

رجل صادق الربانية

إن الغزالي لا يعد من المتصوفة، ولكن أشهد أن الرجل أقرب إلى الله من كثير من الذين يزعمون لأنفسهم أصحاب الأحوال والمقامات! إنها تقوى القلوب، وليست دعوى الألسنة، ولا بريق المظاهر، ولا حمل الألقاب.

إنه يتحدث عن الله تعالى حديث المحب الواله لا حديث الناسك المحترف. ويتكلم عن الله الواحد، كأنه يراه بين يديه بجلاله وجماله وكماله!

ومن قريب رأيته ــ وقد غلبته الدموع ــ يتحدث عن كلمة التوحيد: عن (لا إله إلا الله) ويقول: إني أحب هذه الكلمة وأود لو أقبّلها، أبثها حبي وشوقي وولهي! وحديثه عن أحباب الله وأصفيائه حديث عامر فياض.

كثيراً ما سمعته يردد أبيات ابن الرومي ــ بتأثر ووجد ــ في وصف قوّام الليل، وقد سجلها في بعض كتبه:

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع
كلهم بين خائفٍ ... مستجير وطامع
تركوا لذّة الكَرَى ... للعيون الهواجع
ورعَوْا أنجم الدُّجى ... طالعاً بعد طالع
لو تراهم إذا هُمُ ... خطروا بالأصابع
وإذا هُمْ تأوَّهوا ... عند مَر القوارع

وإذا بـــاشـــروا الثـــرى بـــالخـــدود الضـــوارع
واستهلـــت عيـــونُهـــم فـــائضـــات المـــدامـــع
ودعَـــوْا: يـــا مليكنـــا يـــا جميـــل الصنـــائـــع
اعـــف عنـــا ذنـــوبنـــا للـــوجـــوه الخـــواشـــع
اعـــف عنـــا ذنـــوبنـــا للعيـــون الـــدوامـــع
أنـــت ــ إن لـــم يكـــن لنـــا شـــافـــعٌ ــ خيـــرُ شـــافـــع
فـــأُجيبـــوا إجـــابـــة لـــم تقـــع فـــي المســـامـــع
ليـــس مـــا تصنعـــونـــه أوليـــائـــي بضـــائـــع
تـــاجـــرونـــي بطـــاعتـــي تـــربحـــوا فـــي البضـــائـــع
وابـــذلـــوا لـــي نفـــوسكـــم إنهـــا فـــي ودائعـــي[1]

ولا ريب أنك إذا اقتربت من الغزالي وعايشته، وجدت ملء إهابه رجلاً عميق الربانية، دافق الروحانية، عامر القلب بخشية الله تعالى، غزير الدموع إذا تذكر الآخرة، دائم التلاوة لكتاب الله عزَّ وجلّ، عميق الحب لله سبحانه، عميق الحب لرسوله ﷺ، كما يتبين ذلك من كتبه عامة، ومن كتابه: (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء) خاصة.

وما أكثر اللفتات التي تجدها في كتبه منثورة هنا وهناك، تدل على تلك النفس الشفافة كأنها البلور، والروح الصافية صفاء ماء المزن.

أقرأ هذه الفقرة من كتاب له:

قلت يوماً لرجل تعوَّد السكر: ألا تتوب إلى الله؟ فنظر إليّ بانكسار، ودمعت عيناه، وقال: ادع الله لي!!

تأملت في حال الرجل، ورق له قلبي: إن بكاءه شعور بمدى تفريطه في جنب الله، وحزنه على مخالفته، ورغبته في الاصطلاح معه.

---

(١) من شعر ابن الرومي ــ ديوان ابن الرومي ٤/ ١٤٨٢، ١٤٨٣، طبعة دار الكتب المصرية.

إنه مؤمن يقيناً، ولكنه مبتلى! وهو ينشد العافية ويستعين بي على تقريبها.

قلت لنفسي: قد تكون حالي مثل هذا الرجل أو أسوأ، صحيح أنني لم أذق الخمر قط، فإن البيئة التي عشت فيها لا تعرفها، لكني ربما تعاطيت من خمر الغفلة ما جعلني أذهل عن ربي كثيراً، وأنسى حقوقه.

إنه يبكي لتقصيره، وأنا وأمثالي لا نبكي على تقصيرنا، قد نكون بأنفسنا مخدوعين!

وأقبلت على الرجل الذي يطلب مني الدعاء ليترك الخمر، قلت له: تعال ندع لأنفسنا معا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

الاعتراف بالفضل لإخوانه

ومن فضائل الغزالي ودلائل إخلاصه: اعترافه بالفضل لإخوانه، والإشادة بمواهبهم ومواقفهم وفضائلهم.

فتراه يثني على الشيخ سيد سابق ــ حفظه الله ــ ويبرز مكانته في الفقه، ويحيل عليه، وعلى كتابه: (فقه السنة).

ويقول عن الشيخ عبد المعز عبد الستار ــ حفظه الله ــ: إنه داعية وخطيب من الطراز الأول.

ويقول عن زكريا الزوكة ــ رحمه الله ــ: إن له قلماً جديراً بأن يجعل له مكاناً بين كتّاب الدعوة.

ويقول عن أخيه وزميله الشيخ إسماعيل حمدي: إنه رافعي زمانه.

وكثيراً ما نوه بشخصي الضعيف في المؤتمرات والندوات، وأنا أحد تلاميذه، ويقول: اسألوا يوسف، فهو أولى مني!

وفي الصيف الماضي كنا في ألمانيا، وكنا نتحدث في إحدى القضايا العلمية، وأحال عليّ الإجابة فيها، فلما فرغت فاجأني بل أخجلني بقوله أمام الملأ كبار الأساتذة: لقد كان يوسف تلميذي فيما مضى، وأما اليوم فأنا تلميذه!

وهذه منزلة لا يرقى إليها إلا الصادقون، وأحسبه منهم، والله حسيبه ولا أزكيه على الله عز وجل.

إن كبير القدر لا يصغره تنويهه بقدر غيره، بل يزيده عظمة، ويرفعه مكاناً علياً، أما الصغار فلا يعرفون قدر الكبار، ولو عرفوه لخشوا أن يتحدثوا عنه، فيشعر الناس بصغرهم.

وليس يعرف لي فضلي ولا أدبي ... إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

إضافة الجانب الرباني إلى علم التوحيد

وهو يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب الإيماني في نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق، التي يكون الإيمان بدونها صفراً.

وهو لهذا يرى أن يدخل في علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل للطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول ــ في رأيه ــ في علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدانها.

يتحدث عن حب الله تعالى فيقول: جمهور المسلمين يحسب هذا الحب صفة كمال، أو درجة عليا لبعض العابدين، وهذا غلط شنيع، فإن فقدان هذا الحب فسوق، ويغلب أن ينتهي إلى الكفر البواح[1]، ويستدل بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

---

(١) من كتاب: سر تأخر العرب والمسلمين.